أبو العيد دودومؤرخا

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

من الوجوه العلمية و الشخصيات الأدبية و الكفاءات العلمية التي يعتز بها الوسط الثقافي الجزائري وتفتخر بها الجامعة الجزائرية الأستاذ الدكتور ابو العيد دودو، الذي فرض نفسه بعمله الدؤوب و انتاجه الغزير، و اكتسب محبة الآخرين و تقديرهم بنظرته المتفحصة الذكية للواقع الثقافي، و بروحه المرحة في تعاملها مع الحياة، وتفاعلها مع المجتمع و تفهمها للتراث، و موقفها من قضايا الثقافة و شؤون الأدب وأحداث الساعة.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت أن الأستاذ أبو العيد دودو جمع أشياء في شخصيته الوديعة البشوشة، قد نجدها متفرقة بين أفراد عديدين و لكن يصعب أن تتوفر في شخص واحد. كيف لا و أبو العيد دودو يجمع القناعة الذاتية مع الطموح المجنح، و التشاؤم من الواقع مع الأمل العريض في المستقبل، و اعتلال الصحة مع إصراره على العمل و

الإنتاج. و هذا ما يجعل المتعامل معه يلمس فيه روح الشاعر الحالمة، و نفحة الشباب المندفعة، وخيال الأديب المتمرد على واقع الجزائر الصعب.

هذا الواقع الذي لا يمكن مجابهته و التغلب على احباطاته إلا بالتفاؤل و الصبر و العمل الدؤوب لأنه واقع نتج عن الزمن الرديء الذي لا يعترف إلا بالسلوك الاداري المتحجر و بمواقف الانتهازيين البليدة، وبادعاءات المتلصصين الفارغة التي لا تقوم على أي أساس و لا تستند إلى أي منطق أو قناعة.

إن ما يميز الأستاذ الدكتور أبو العيد دودو هو حسن تعامله مع وضعه الصحي الصعب و استجاباته الموفقة لحاجات واقعه، فهو يمارس الحياة بنظرة تتجاوز احباطات الحاضر، و تستمد نكهتها من مآثر الماضي وحيويتها من الأمل في المستقبل، و هو مع ذلك يتعامل مع من حوله و يؤثر فيهم بخفة روحه و صفاء طويته وطيبة خاطره، و في كل ذلك يمارس هواياته في الكتابة، و يفرض حضوره الأدبي بعمق معرفة و دقة علم وسعة أفق، و هو قبل كل شيء يعبر في كتاباته عن الحاجات الانسانية بريشة الفنان المرهف الاحساس، و قلم الكاتب المبدع، و نظرة المؤرخ المتفحص للأحداث و المستقرئ للأسباب و النتائج.

كل هذه الجوانب تحدد معالم شخصية الأستاذ أبو العيد دودو، وتفرض على نقاد أدبه و المتعاملين مع انتاجه بمختلف أصنافه، من قصص و مسرحيات و روايات و فنون تراثية و انطباعات شخصية و ترجمات أدبية و تاريخية التعرف على نظرته لأصناف الأدب و على جوانب الإبداع من عطائه، مما يجعل الاطار التاريخي لاسهاماته و المادة

التاريخية في كتاباته تشكل بحق أساسا لكل تناول نقـدي أو عـرض أدبي لانتاجه، فالجانب التاريخي في كتابة أبو العيد دودو يشـكل مجـالا معرفيا خاصا و فضاء فكريا متميزا يلفت انتباه القراء، و يدفع مـن لـه اهتمام بالتاريخ إلى التعرض له، و لعل هذا أحد الأسباب التي دفعتنا إلى تناول الجانب التاريخي في كتابات الأستاذ أبو العيد دودو، فعسى أن نوفق في إبراز مساهمة هذا الأديب الكبير في هذا الجانب المهم فـي الثقافـة والتراث الإنساني.

إن التعريف بالعطاء التاريخي لأبو العيد دودو يتطلب منا في مستهل هذا العرض إلقاء نظرة سريعة على مسار حياته، و محطات تكوينـه و مراحل تعلمه، لارتباط ذلك بنوعية كتاباته و توجهاته الأدبية ؛ و في هذا الإطار يمكن تحديد معالم حياة أبو العيد دودو. فقد نشأ فـي الريـف، و ترعرع في أحضان الطبيعة الهادئة الحالمة، قبل أن تدفع به تقلبات الحياة ليغادر مراتع صباه نحو المدينة بكل صخبها و ضجيجها، ليختبـر حيـاة الهجرة ومعاناتها خارج الوطن كطالب ثم كأستاذ، ليعود مرة أخرى إلـى بلده الجزائر، ويستقر به المقام بعد ترحال وغياب طويل، و تنتظم حياته في مهنة التعليم الجامعي، الذي كان خير حافز له على مواصلة نشـاطه الثقافي وانتاجه الأدبي.

ولد أديبنا المؤرخ أبو العيد دودو – حسبما ترجم لنفسـه – بـدوار تمنحر، بلدية العنصر بولاية جيجل في نهاية الشـهر الأول مـن عـام 1934، و عرف اليتم و هو ابن الثالثة، و خبر حياة الحرمان و شـظف العيش في مسقط رأسه و هو صبي ، قبل أن يتكفل به أحد أقاربه و هـو الشهيد أحمد دودو، و هذا ما سمح له أن يغادر كتـاب دشـرته ليـزاول

دراسته بإحدى المدارس الأهلية الإصلاحية بقسنطينة مع نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة الشيخ محمود حماني بحي سيدي بوعنابة، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة الشيخ محمد الزاهي، و أثناء ذلك بدأ ميله إلى الأدب و اهتمامه به على يد أحد أساتذته، و هو المرحوم الشيخ صادق حماني. و مع التحاقه بمعهد عبد الحميد بن باديس الذي فتح أبوابه بقسنطينة كفرع لجامع الزيتونة في خريف عام 1947، اكتسب أبو العيد دودو ثقافة عربية أصيلة المحتوى راقية المستوى، على أيدي الرعيل الأول من مدرسي هذا المعهد العتيد، أمثال الشيخ العباس بن سيدي الحسين و عبد القادر الياجوري، و عبد المجيد حيرش، و عبد الرحمن شيبان، و أحمد حماني. و حظي أثناء ذلك بزمالة الطليعة الأولى من طلبة جمعية العلماء المسلمين، أمثال حنفي بن عيسى و عثمان سعدي.

و بعد أن استكمل أبو العيد دودو دراسته بمعهد ابن باديس بقسنطينة خلال أربع سنوات، انتقل إلى جامع الزيتونة لإجراء امتحان شهادة الأهلية – كما كان متبعا آنذاك – فحصل عليها سنة (1951)، ومكث بتونس بنية استكمال دراسته الثانوية، و انتسب إلى مكتب ابن عبد الله أحد فروع جامع الزيتونة، على أن حصوله على منحة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى العراق مكنه من الالتحاق ببغداد، حيث انتسب إلى قسم اللغة العربية بدار المعلمين، و طاب له المقام على ضفاف دجلة حيث وجد أفقا رحبا و فضاء فسيحا، و قدوة مثلى في أساتذته الذين تأثر بهم أمثال مصطفى جواد و جواد الطاهر و عبد الرزاق محيي الدين ؛ فبرزت ميوله الأدبية و تعمقت نظرته لقضايا الانسان و الأدب و الحياة مع استكماله تحصيله العلمي بنيل شهادة ليسانس في الأدب العربي (1956).

شاءت ظروف الحياة أن تدفع بأبو العيد دودو إلـــى دار هجـــرة أخرى، عندما انتقل لمواصلة دراساته العليا إلى النمسا في نفس السنة التي تخرج فيها من بغداد. فحل بفيينا و هو خاو الوفاض من كل معرفة باللغة والأدب الألماني، فانكب بشغف على دراسة اللغة الألمانية، و واظب على التعمق في دراسة الآداب العربية والعلوم الإســـلامية بقســـم الدراســـات الشرقية بجامعة فيينا، فتوجت جهوده بالحصول على درجة الدكتوراه من جامعة فيينا في ربيع عام 1961 عن دراسته وتحقيقه لمخطوط "التـــاريخ المنصوري" لابن نظيف الحموي.

حرص أبو العيد دودو على مواصلة تكوينه و صقل مواهبه الأدبية و الوصول بمستواه إلى درجة العطاء و منزلة الإبداع، فواظب على البحث عندما كلف ببعض الدروس بالمعهد الذي درس فيه بفيينـــا فـــي الســـنة الأخيرة من دراسته. و هذا ما ساعده بعد تخرجه على الانتســـاب إلـــى جامعة كيل الألمانية، لتغطية بعض المقررات الدراسية بالمعهد الشـــرقي تحت اشراف المستشرق فيلهلم هوفرباخ (1961–1964)، بعدها عاد إلى جامعة فيينا بدعوة من أستاذه لودفيغ غوتشالك لتدريس اللغة العربيـــة و آدابها، و عندها بدأ خطواته الأولى في الإنتاج بنشر محاولاته الأولى عن الأدب الجزائري و العربي باللغة الألمانية. و كاد أن يستقر بـــه المقـــام بألمانيا للتدريس بالمعهد الشرقي بجامعة فرايبورغ لولا شروط المشـــرف على هذا المعهد المستشرق روبير رومر التي رأى فيها أبو العيـــد دودو قيودا تحد من نشاطه و تقيد حريته، و هذا ما جعله يفضل العـــودة إلـــى الجزائر و الاستقرار بها.

التحق أبو العيد دودو بقسم الآداب بجامعة الجزائر (1966)، فواظب على أداء رسالته التعليمية، ولم يهمل الاشتغال بالبحث و الكتابة، فدرس عليه نخبة من الشباب الجامعي المتميز، أصبح العديد منهم أساتذة للأدب العربي بالجامعة الجزائرية. و مع تعاقب السنين و مر الأعوام درس على أبي العيد دودو مئات الطلبة في مختلف مراحل دراستهم الجامعية، و ظلت في ذاكرة العديد منهم صورة الأستاذ أبو العيد دودو حية في مخيلتهم من خلال المقررات التي كان يدرسها، و التعليقات و المناقشات التي كان يثيرها حول قضايا الأدب المقارن و الآداب القديمة و نظرية الأدب.

و أثناء ذلك لم يتوان أبو العيد دودو عن القيام بالمهام الإدارية، و تولي المسؤوليات البيداغوجية من رئيس قسم اللغة العربية إلى مدير معهد اللغة و الأدب العربي إلى رئيس مجلس البحث العلمي لكلية اللغة العربية. على أن ما يلفت انتباه المتتبع لمسيرة النشاط العلمي لأبو العيد دودو يلاحظ أن مشاغل التسيير الروتينية لهذه المسؤوليات الإدارية لم تحل دون مواصلته للانتاج و لم تعرقل حضوره الأدبي في الساحة الثقافية وفرض مكانته في الفضاء الأدبي الجزائري بما نشره من مؤلفات و ترجمات و بما شارك فيه من مؤتمرات محلية وعربية وعالمية و بما أسهم به من مداخلات جادة و عروض مبدعة و بحوث متميزة.

لقد أغنى الأستاذ أبو العيد دودو رصيد المكتبة العربية، و خاصة ما يتعلق منه بالجزائر، بانتاج غزير متنوع جمع بين الدراسات و الترجمات الأدبية و التاريخية و بين المسرح و القصة و الانطباعات الذاتية، ناهز عددها السبعين عملا بين مطبوع متداول بين أيدي القراء و مخطوط لا

زال ينتظر النشر، فضلا عن المشاريع الأدبية العديدة التي هو بصدد انجازها و الانتهاء منها، و التي كان لي الحظ للاطلاع عليها عند زيارتي له بمنزله، وهي تربو على 21 عملا ابداعيا و32 عملا مترجما عن اللغة الألمانية، و 9 دراسات، و أربعة قواميس مدرسية (عربي–ألماني–عربي) ومسرحيتين و تحقيق واحد، بالإضافة إلى كتب مدرسية لتعلم اللغة الألمانية موجهة للطلاب.

و ما دمنا في عرضنا هذا نهتم بالجانب التاريخي من إسهام أبي العيد دودو، فإنه يتوجب علينا التعريف بأهم أعماله في هذا المجال، و هي :

1. **التاريخ المنصوري المعروف بـ"تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان"** لأبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي (طبع بدمشق 1982، ثم أعيد نشره بالجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، 252 ص.).

يؤرخ للدولة الأيوبية و يتعرض خاصة للأحداث التي وقعت ما بين سنتي 589 و 631 هـ/1193 و 1234م، و قد اعتمد فيه مؤلفه على المصادر المعاصرة و الروايات المتداولة و مشاهداته الشخصية، فكان تسجيلا حيا و وصفا دقيقا لأحداث الفترة التي يؤرخ لها، فقد تولى ابن نظيف منصب كاتب في دولة الملك الحافظ صاحب قلعة جعبر، و تعرض للسجن و المصادرة (627–628 هـ/1230–1231 م)، و خدم السلطان الملك المنصور بن المجاهد بعد أن تحول إلى حماة (633 هـ/1236 م)، و أهداه كتابه الذي عرف بالتاريخ المنصوري. و يعتر ابن نظيف من مثقفي عصره فقد قرض الشعر و اشتغل بتسجيل الأحداث، فوضع كتابا مطولا في التاريخ بعنوان "تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان"،

اختصر مرتين بعنوانين مختلفين، أحدهما : "مختصر سير الأوائل و الملوك و وسيلة العبد المملوك" (نسخة المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1507)، والآخر "التاريخ المنصوري" أو "مختصر ابن نظيف" (نسخة مكتبة المعهد الشرقي بلينينغراد المسجلة تحت رقم : 1 م 159).

وضع ابن نظيف مختصره "التاريخ المنصوري" سنة 631 هـ، فجعل قسمه الأول في شكل قائمة بأهم الأحداث و الوفيات، بينما توسع في القسم الثاني الذي يبدأ مع وفاة صلاح الدين الأيوبي، فجاء عرضا مختصرا و مركزا و غنيا بالأحداث، فكان مرجعا للعديد من المؤرخين المتأخرين مثل : ابن الفرات (ت. 807 هـ/1405 م) في تاريخ الدول و الملوك، والمقريزي (ت. 845 هـ/1442 م) في كتاب السلوك، و أبو الفرج بن العبري (ت. 1289 م) في تاريخ مختصر دول العالم.

قام أبو العيد دودو بتحقيق "التاريخ المنصوري" في إطار دراسته العليا بألمانيا، فوجد في مدرسة الاستشراق الألماني الإطار الملائم لإنجازه، كما وجد في نصائح أساتذته الألمان (أ. ديتريش، هـ. غوتشالك، ليش وستيبات، راينرت) خير مرشد له في هذا العمل التاريخي، الذي تميز باحترام قواعد تحقيق المخطوطات من حيث التصحيح والمقارنة و استنطاق النص و شرح المصطلحات، و التعليق على الأحداث.

2. **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان** (الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب، ط. 1، 1975، ط. 2، 1990).

عرف فيه أبو العيد دودو بمجموعة من الرحالة الألمان الذين زاروا الجزائر و تعرفوا عليها و كتبوا عنها في النصف الأول من القرن التاسع

عشر، وهم : 1) فيلهلم شيمنر (1804–1878) : قام برحلة إلى الجزائر سنتي 1831–1832، سجل مشاهداته في شكل مذكرة طبعت بشتوتغارت (1834). 2) فرديناند فينكلمان : نشر كتابا عن تاريخ احتلال الفرنسيين سنة 1830 (نشر إيلمناو، 1832). 3) هرمان هاون : وضع بالاشتراك مع إدوارد فيدرمان كتابا صغيرا عن الجزائر بعنوان "الجزائر كما هي"، نشر بشتوتغارت (1835). 4) موريتس فاغنر (1813–1887) : العالم الطبيعي الألماني الذي زار الجزائر ما بين سنة 1835 و 1837، و وضع تأليفا عنها بعنوان "رحلات في ولاية الجزائر سنوات 1836–1838"، نشر في لايبزج (1841)، في ثلاثة أجزاء، الأول تعرض فيه لوصف لمدينة الجزائر و المدن الأخرى التي شاهدها، و الجزء الثاني خصصه لتاريخ الاحتلال و المعارك التي حضرها، و الجزء الثالث تناول فيه مملكة الحيوان في الجزائر بمشاركة أخيه رودولف. 5) آدولف شترال النمساوي : نشر مجموعة قصص عن الجزائر بعنوان صور شمسية جزائرية نشرت بفيينا (1842). 6) كليمانس لامبينغ : التحق بالفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي (اللفيف الأجنبي) و عمل بها منذ 1839، وضع مذكراته عن الجزائر سنة 1841 و نشرها في أولدنبورغ (1844)، فكانت بحق وصفا حيا لأسلوب الأرض المحروقة التي طبقها جلاد الجزائر بيجو في محاربته للأمير عبد القادر الجزائري. 7) لودفيغ بوفري: أعجب بالمشروع الاستعماري الفرنسي و اعتبره عملا حضاريا في تقاييده عن الجزائر "مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية" و نشر ببرلين 1855 ؛ 8. الأمير النمساوي فريدريش شفارتسنبيرغ : سجل ملاحظاته عن الجزائر في كتابه "التفاتات إلى الجزائر" (1837). 9)

الطبيب الدنماركي شونبيرغ : الذي شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر و وضع كتابا عن مشاهداته بعنوان "نظرات على الجزائر" (1839). 10) الأمير البولوني بوكلر موسكاو سيميلسو : وضع كتابا عن الجزائر بعنوان "الأمير بوكلر موسكاو في إفريقيا"، وصف فيه مناطق الساحل الجزائري و علق على الأحداث التي وقعت أثناء زيارته للجزائر.

3. **ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا** (Drei Jahre im Nordwestern von Afrika) لهاينريش فون مالتسان (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 3 أجزاء، ج. 1، 1976، ج. 2، 1979، ج. 3، 1980).

قدم لنا أبو العيد دودو من خلال ترجمة كتاب مالتسان (1847) أحسن وصف لجزائر منتصف القرن التاسع عشر، من حيث أوضاع الجزائر آنذاك و طبيعتها و سكانها و مراكزها العمرانية. وفقد كان مؤلفه على معرفة تامة بالجزائر، فقد زارها خمس مرات و مكث بها ثلاث سنوات، قبل أن يغادرها نهائيا سنة 1860. فقد استطاع مالتسان في كتاباته عن الجزائر، حسب وصف الجغرافي الألماني الشهير فردريش راتسل له : "أن يتحول من سائح مهتم إلى رحالة عالم يتحرى الحقيقة و الصدق". و هذا ما أعطى وصفه للجزائر قيمة علمية و وثائقية، فجاءت تعليقاته مليئة بالمعلومات التاريخية و الطبيعية و الاجتماعية، فما من قرية يمر بها، و ما من مدينة يحل بها، إلا و يقدم عنها وصفا طبيعيا و نبذة عن تاريخها منذ نشأتها حتى الفترة التي زارها فيه

إن القيمة التاريخية لهذا المصدر المهم عن الجزائر تكمن في كونه كتب بقلم ألماني بعيد عن الروح الاستعمارية و النظرة الاستعلائية التي

ميزت كتابات الفرنسيين آنذاك، فجاءت المشـــاهدات و الملاحظـــات والانطباعات التي تضمنتها صادرة عن نظرة متفتحة و موقف حيادي و روح نقدية لا تتردد في توجيه النقد اللاذع لموقف الفرنسيين و الســـخرية المرة من سلوكاتهم الصادرة عن احتقارهم للجزائـــريين و عـــن جهلهـــم لحضارة غريبة عنهم و ادعائهم الوقح بأنهم "الأمة العظيمـــة وارثـــة و مجددة مجد الرومان".

لقد تمثل الأستاذ أبو العيد دودو مادة الكاتب و تفاعل مـــع مؤلفـــه، فجاءت ترجمته له صورة حية لواقع الجزائر الاستعماري في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، فيخالها القارئ و كأنها كتابـــة إبداعيـــة معبـــرة باسلوبها المسترسل و عباراتها التي جمعت دقـــة الملاحظـــة و حيويـــة الوصف مع حياد الموقف ونفاذ النظرة.

4. **مذكرات بفايفر (1806-1883)** (الجزائر، ط. 1، 1975، ط. ، 1999).

مكث بفايفر في الأسر بمدينة الجزائر خمس ســـنوات (1825-1830)، عمل أثناءها طباخا لدى الخزناجي المكلف بالمالية، قبل أن يصـــبح بعـــد سنتين طبيبه الخاص، و هذا ما ساعده على الحصول على حريته قبـــل الغزو الفرنسي للجزائر بقليل و مكنه من الاطلاع على أوضاع الجزائر و ظروفها قبل أن يغادرها نهائيا في 16 سبتمبر 1830، ليهـــاجر بعـــض الوقت إلى البرازيل قبل أن يعود ليستقر بألمانيا، فجاءت تقاييده وصفا حيا لمدينة الجزائر والأحداث التي عاشتها قبل و أثناء الغزو الفرنسي لها.

تميزت مذكرات بفايفر التي وضعها بالألمانية في أحد عشر فصلا، بالملاحظات الدقيقة و الوصف الحـــي و النظـــرة لأوضـــاع الجزائـــر

وملابسات الغزو الفرنسي الذي تعرضت له، فقد قدم وصفا اعتمد فيه على مشاهداته لعملية الانزال الفرنسي بسيدي فرج (14 جوان 1830) و احتلال الجيش الفرنسي لمدينة الجزائر (4 جويلية 1830)، ثم أضاف لمذكراته هذه نبذة مركزة عن عناصر السكان و ما كانت تتميز به حياتهم و تختص به بعض الطوائف منهم، و هذا ما جعلها أكثر دقة و تفصيلا حتى مما كتبه حمدان خوجة في المرآة و أحمد أفندي في تقريره عن الغزو الفرنسي.

نالت مذكرات بفايفر بعد نشرها بألمانيا (1832) اهتمام القراء، و هذا ما شجع صاحبها على إصدار ملحق لها بعنوان "وصف دولة الجزائر و سكانها" (1833)، و إعادة طبعها للمرة الثانية مع ملحقها سنة (1834)، قبل أن تتم ترجمتها إلى الإنكليزية (1836)، و ينقل منها جزء إلى الفرنسية، و يعاد نشره في المجلة الإفريقية (1876) بعنوان "احتلال الجزائر عن رواية أحد الأسرى" (La prise d'Alger racontée par un captif). أما الترجمة العربية فقد تأخرت و لم تر النور إلا بفضل مبادرة أبو العيد دودو، فظهرت سنة 1982 ثم نشرت على حلقات في مجلة الجيش سنة 1986، قبل أن تصدر في طبعتها الأخيرة عن دار هومة (1998) بقسميها : التقاييد الأصلية (ذكريات و أحداث) و الملحق (الجزائر حكومة و شعبا).

5. **<u>قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)</u>** لفندلين شلوصر (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1976، 119 ص.).

اقتصر أبو العيد دودو في ترجمته لمذكرات شلوصر على ما يهم الجزائر، و هذا ما سمح له بتحوير عنوان هذه المذكرات من رحلات في

البرازيل و الجزائر أو مصائر فنـدلين شلوصـر البومبـاجي إلـى "قسنطينة أيام أحمد باي". فأعطى أبو العيد دودو من خلال ترجمته الدقيقة المعبرة صورة حية لمغامرات هذا الألماني الجريء الذي التحق بالجزائر للعمل بالفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي، و وقع فـي أسـر المقـاومين الجزائريين عندما غامر بالابتعاد عن قاعدته العسكرية، فأعطى وصـفا لمدينة الجزائر و لحوش الحراش (برج الحراش) و لرحلته أسـيرا مـن الجزائر إلى قسنطينة، فسجل ملاحظاته عن أوضـاع مدينـة قسـنطينة المهددة بالغزو الفرنسي آنذاك و تعرض لحالة سكانها و عاداتهم و طريقة عيشهم و أسلوب حياتهم، و لم يفته أن يلاحظ مدى التباين فـي أسـلوب الحياة وطريقة العيش بين سكان المدن و بدو الصحراء، كمـا لـم يفتـه التعرض للهجوم الفرنسي على قسنطينة (1836) وما شاهده عند اقتحـام الفرنسيين لها في 13 أكتوبر 1837، و ما صاحب ذلك من مقاومة باسلة للقسنطينيين في تصديهم للمهاجمين، و محاولتهم الوقوف في وجه المدافع الفتاكة. و قد وجد نفسه بعد استيلاء الفرنسيين على المدينة متحررا مـن أسره، فانكب على تسجيل مذكراته، و هذا ما جعلها بمثابة وثيقة تاريخية عن أوضاع الشرق الجزائري أثناء حكم الحاج أحمد باي.

6. **الأمير عبد القادر و العلاقات الفرنسية العربية** لـ أ. ف. دينيزن (A. W. Dinesen, Abd-el-Kader und die Verhättniss nördlich Afrika) (طبع بالجزائر سنة 1999) (دار هومـة، 1999، 133 ص.).

سجل فيه مؤلفه بلغته الاصلية الدنمركية مشاهداته أثناء عمله كضابط مدفعية بالجيش الفرنسي بالجزائر (1837–1838)، وعرف فيه بمشاركته

في المعارك ضد الأمير عبد القادر. و أصبح في متناول القراء عندما نشر مترجما إلى الألمانية (1840). وقد أبدى فيه تحفظه على السياسة الفرنسية كما عبر عن اعجابه بشخصية الأمير عبد القادر و تقديره لروح المقاومة الوطنية التي كان يتزعمها ولعاطفة الدفاع عن الوطن. كل ذلك في إطار سرد تاريخي و عرض موضوعي و نظرة محايدة للأحداث التي عاشها و الوقائع التي حضرها، مما يجعل كتاب دينيزن رواية شاهد عيان و رأي مشارك في صنع الأحداث لا يمكن لأي باحث تجاوزها أو التقليل من أهميتها خاصة ما يتصل منها بجهاد الأمير عبد القادر.

7. **الأمير عبد القادر ليوهان بيرنت** (Johann Carl Berndt, Abdelkader oder drei jahre eines deutschen under den naur nebst) (ط. 2، الجزائر، دار هومة، 1997، 239 ص.).

وصف فيه بيرنت مشاهداته في الجزائر حيث قضى ثلاث سنوات بين العرب حسبما هو مسجل في العنوان الأصلي للكتاب الذي نشر بالألمانية عام 1840. و قد تضمن معلومات في غاية الأهمية، عرف أبو العيد دودو كيف يقدمها للقارئ العربي في أسلوب يجمع دقة الوصف، و سلاسة اللغة و حسن التعبير، و بذلك زود المكتبة التاريخية بإحدى المصادر الأساسية لملحمة الأمير عبد القادر في تصديه للفرنسيين،و في بناء مؤسسات دولته.

8. **الحمار الذهبي** للكاتب الجزائري لوكيوس أبوليوس (124 أو 125–180 م) (الجزائر، منشورات الاختلاف، أفريل 2001، 292 ص. و قدم للنشر لدار الجمل 12–6–1999).

أفرد له أبو العيد دودو مقدمة ضافية، عرف فيها الأديب الجزائري الذي كان يفخر بانتمائه إلى موطنه مداوروش و بثقافته الكلاسيكية اللاتينية الإغريقية بحيث يحلو له أن ينعت نفسه بـ"المداوروشي الأفلاطوني"، و هذا ما سمح للقارئ بالاطلاع على سيرة حياة أبوليوس ومواقفه و مغامراته وأسفاره من أجل الدراسة وتنقله إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى لاستكمال ثقافته، و هذا ما جعل منه خطيبا بليغا بروما و صاحب مكانة أدبية في إفريقيا الرومانية، لكن ضياع ثروته دفعه إلى السفر نحو الشرق، فتوقف بأويا (طرابلس) عند أحد أصدقائه حيث تزوج الأرملة الثرية إيميليا أودانتيا (Emelia udentilla)، و أصبح من الأعيان و الأثرياء، مما أثار حفيظة حاسديه الذين اتهموه بممارسة السحر، فأبطل ادعاءهم بخطبه البليغة، قبل أن يستقر به المقام بقرطاج ليشتغل بالخطابة، و يصبح عضوا في المجلس الاستشاري للمدينة، و يتوجه إلى التأليف في المواضيع الأدبية و الفلسفية، قبل أن يوافيه أجله حوالي سنة 180 م.

يعتبر أبوليوس في طليعة الأدباء اللاتين بإفريقيا لما تركه من كتب في مسائل أدبية و قضايا فكرية مثل : الدفاع (Apologia) والأزاهير (Floria) و عن الإله سقراط (De Deo Socrates) و عن أفلاطون (De Platone et eius dogmate) و عن العالم (De Mundo) و التحولات (Metamorphoseon) و هو أكثرها شهرة و ذيوعا.

عرفت التحولات بالحمار الذهبي (Asinus Aureus) عندما تناولها القديس أوغسطين في نقده لها بهذا الاسم، و اعتبرها نتاج ثقافة وثنية قائمة على منهاج الأسطورة الإغريقية المنسوبة للوكيوس اليونان،ي التي

تحول فيها البطل بفعل السحر إلى حمار. و قد بدأ أبوليوس كتابه التحولات أو الحمار الذهبي عندما كان يشتغل بالمحاماة و يمارس تدريس البلاغة بروما، ثم استكمله بعدما تقدم به السن، فجاء عمله إسهاما أدبيا متميزا يتمثل في قصة شخصية البطل لوكيوس الذي مسخ حمارا بعد أن استبدت به الرغبة في ممارسة السحر مستعينا بعلاقة الحب التي كانت تربطه بالخادمة بامفيلا، و كان يأمل في محاكاته للطقوس السحرية أن يتحول إلى طائر، لكنه تحول لخطأ في الوصفة إلى حمار، لتبدأ معاناته الناتجة عن رغباته كانسان و طموحاته كشاب رقيق و بين واقع المسخ الذي أصبح يعيشه كحمار، و تأخذ القصة صفة الحكاية الطويلة عندما تتشعب بفعل تعدد مغامرات لوكيوس الحمار، تحكي انغماسه في حياة اللصوص والمشعوذين والسحرة، قبل أن يحالفه الحظ أخيرا و يعثر على الوصفة الصحيحة التي تنقذه من المسخ، و تعيده إلى شكل إنسان.

استطاع أبوليوس في قصته "الحمار الذهبي" أن يعالج قضايا المجتمع،و أن يعرض للمسائل الأخلاقية والنفسية من خلال محاكاة ساخرة لمظاهر السلوك الإنساني، فتجاوز بذلك المعاملات المظهرية للإنسان إلى دوافع السلوك الخفي البعيد عن المراقبة لأنها صادرة عن إنسان في مظهر حيوان، و قائمة على تداخل الجانب الواقعي في الحياة بالتصور الخيالي للأسطورة. و هذا ما يجعل من رواية "الحمار الذهبي" رحلة للبحث عن الذات ومعانقة النفس ينتقل فيها القارئ من الخيال الأسطوري و التعبير الرمزي إلى حقيقة السلوكات الفردية التي تكشف عن الحقائق المعبرة عن العناصر الدرامية في السلوك الإنساني الخفي، فتجاوز بذلك أبوليوس في عمله هذا قصة لقيانوس السميساطي الإغريقي (125-185

ق.م.) إلى بناء جديد لأحداث الرواية التي تعتبر من الطقوس الشرقية المتبعة في عبادة إيزيس و ما كان يختلط بها من ديانة مزدكية، القائمة على فكرة إمكانية تحقيق القداسة في النهاية و تجاوز الخطيئة المرتكبة، و بذلك هيأ الفكر اللاتيني لتقبل دعوة المسيحية، رغم أن القديس أوغسطين أنكر عليه ذلك و اعتبره مجرد فيلسوف أفلاطوني، و راهب وثني.

لقد عرف أبو العيد دودو في ترجمته و تقديمه لرواية الحمار الذهبي لأبوليوس كيف يقدم للقارئ العربي هذا الإبداع الأدبي القديم في نصه الكامل، اعتمادا على النسخ الألمانية و الفرنسية المترجمة عن النص اللاتيني، وهذا ما يسمح لدارسي التاريخ و المهتمين بالأدب بالتعرف على القيم و الميول التي أثرت في التراث الكلاسيكي و تحكمت في ذاكرة عالم البحر المتوسط القديم.

9. **<u>اليوميات و المذكرات الشخصية</u> :** و هي تقاييد و ضعها أبو العيد دودو في شكل يوميات سجل فيها تعليقاته على الأحداث و انطباعاته عن الاشخاص، و استعرض فيها أمورا خاصة و ما يعانيه من هموم اجتماعية و قضايا أدبية و ثقافية، بدأها متقطعة سنة 1978، ثم واظب على تسجيلها ابتداء من عام 1992، فألزم نفسه يوميا بتسجيل ما يخطر له من آراء، وما يعرض له من أحداث و لقاءات و نشاطات. فجاءت حسبما أطلعني على بعض أجزائها و ما قرأ علي من فقراتها تسجيلا حيا عن حياة الكاتب و تعبيرا صادقا عن نظرته لواقع مجتمعه و قضايا عصره، و متطلبات بيئته.

لا تزال مذكرات أبو العيد دودو حتى الآن مخطوطة موزعة على العديد من الكراسات، تحتل إحدى زوايا مكتبته الغنية بسكنه بحي ابن

عكنون، تتصل الكراسات الخمس الأولى بحياة أبو العيد دودو في المهجر، بينما باقي الكراسات ترصد حياته و تسجيل انطباعاته لما شاهده أو عاشه أو تأثر به أثناء زياراته لبعض البلدان العربية و الأقطار الأجنبية. و هذا ما جعل الحجم الإجمالي لهذه اليوميات و المذكرات يتجاوز 2500 صفحة، موزعة على عشرة دفاتر كبيرة لم ينشر منها سوى دفتر واحد في عدة حلقات بمجلة المجاهد الأسبوعي (سنة 1990) بعنوان "كتابات مهمة"، و بعض التقاييد الخاصة في ست حلقات في مجلة الشروق الثقافي بعنوان "خفقات قلم"، بالإضافة إلى بعض الحلقات الأخرى في جريدة الحياة العربية (26-8-1993/28-10-1993) بعنوان "المحقق السري". هذا و يمكن أن تضاف إلى المذكرات الشخصية هذه ما كتبه أبو العيد دودو من انطباعات خاصة بعنوان "صور سلوكية" (صدرت في ثلاثة أجزاء)، و من "من أعماق الجزائر" (صدر عن دار الأمة، 1993)، و تعاليق أو ملاحظات خاصة بعنوان "ظواهر اجتماعية" (تحت الطبع).

***

كل هذه الأعمال التاريخية، التي أغنى بها الأستاذ الدكتور أبو العيد دودو الثقافة العربية و أتحف بها المكتبة الجزائرية، هيأت له مكانة خاصة بين العاملين على إحياء التراث و المساهمين في تطوير الدراسات التاريخية بالجزائر، فرغم ارتباط أبو العيد دودو بالابداع الأدبي إلا أن الحضور التاريخي فيما كتبه أو حققه أو ترجمه أو قدم له يظل في نظرنا حجر الأساس في رصيده و عطائه الثقافي، و هذا ما يدفعنا في ختام هذا

العرض إلى محاولة تحديد المواصفات الأساسية للجانب التاريخي في إسهام أبي العيد دودو، في الملاحظات التالية:

1. إن أبا العيد دودو بدأ مشواره الثقافي أديبا بعيدا عن قيود و ضوابط منهجية التاريخ ليجد نفسه في الأخير في حلبة المؤرخين المجددين الرافضين لقيود الإطار الزماني و المتجاوزين لأسلوب المعالجة الحرفية، فأعطى لكتاباته التاريخية محتوى يتجاوز العرض الزمني و الدلالات الوصفية، إلى طرح الإشكالية الأساسية في الفكر التاريخي المتمثلة في معالجة الوجود الإنساني المتأثر ببيئته، و المتفاعل مع مجتمعه و المعبر عن حاجات عصره.

2. لقد فتح أبو العيد دودو بما نقله من الألمانية بابا ظل مغلقا و مصدرا ظل مهملا، و هذا ما سمح للقارئ الجزائري أن يتجاوز – في قضايا مهمة تتعلق بتاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر – دائرة الثقافة الفرنسية المعبرة عن الواقع الاستعماري الفرنسي بالجزائر و الرجوع إلى إسهام جرماني ظل إلى تلك الفترة غير مرتبط بالمصالح الاستعمارية الضيقة، و في معزل عن الميول الفكرية المتحيزة التي تتجاهل الحقيقة و تجانب الموضوعية، من أجل أهداف توسعية، و مخططات استعمارية.

3. كان أبو العيد دودو من خلال انتاجه الأدبي و إسهامه التاريخي الصورة المعبرة عن المثقف الجزائري الأصيل، الذي جمع الجانب الأدبي المعبر عن الأحداث بالجانب التاريخي المسجل لتلك الأحداث، فكان بحق في طليعة كوكبة من الكتاب جاد بهم رحم الجزائر المستقلة، فرضوا أنفسهم على الساحة الجزائرية و العربية بما يملكون من أسلوب عربي

راق، و ما تفاعلوا معه من كنوز التراث الإنساني، و عملوا على نشر ثقافة الوعي التاريخي والإبداع الأدبي، في الأجيال الجامعية الناشئة.

4. إن أبو العيد دودو فيما أسهم به من كتابات تتعلق بالجانب التاريخي لم يقفع عند النص المترجم بل تعداه إلى الإبداع الأدبي و العرض التاريخي، مما يجعل ترجماته بمثابة كتابات جديدة لا أخال أي قارئ لها يظل بعيدا عن التأثر بها، و تذوقها، سواء من جانب اللغة و الأسلوب أم طريقة العرض و التناول و المعالجة.

5. إن الجانب التاريخي ظل حاضرا في كل أعمال أبي العيد دودو بمختلف أصنافها و تعدد أنواعها، سواء بطريقة ضمنية أم مباشرة، فالجدلية التاريخية القائمة على البعد الزمني و الوضع الاجتماعي و الشعور الإنساني هي التي تحدد ملامح الصورة التاريخية في كتابات أبي العيد دودو. مما يجعل التاريخ بحق أحد روافد الإبداع الأدبي الذي يبث في الأحداث شحنة من الحيوية، تجعل التاريخ حدثا إنسانيا، و تجربة بشرية، وليس مجرد ذكريات مضت و أحداث انقضت.

6. إن أبا العيد دودو فيما عرض من مواضيع لها بعد تاريخي، لم يتوقف عند الحدث في حد ذاته، بل تعداه إلى أثره و مكانته في حياة المجتمع، فتجاوز بذلك عقلية الباحث المشدود إلى الفعل المنعزل إلى نظرة المؤرخ التي تتجاوز الأحداث المتفرقة، و المواقف الآنية، إلى تشكيل صورة حية للماضي، و هذا ما جعل كتابات أبو العيد دودو تجمع صدق العاطفة، و خفة النفس، و طرافة الموضوع، إلى دقة الوصف، و موضوعية العرض،و عمق التحليل.

7. كانت مساهمة أبو العيد دودو في محتواها التاريخي كما كانت في مظهرها الأدبي صورة لواقع مجتمعه وعرضا لحالة بلده، ورصدا للتطورات الخطيرة التي عرفتها الجزائر في النصف الثاني من القرن العشرين. و ما كان له ذلك لولا نظرة المؤرخ و شعور الأديب، فقد هزته شعارات وآمال الثورة الجزائرية، و خدعه سراب مشاريع الاستقلال التي أعمت العيون عن مخاطر المستقبل، كما أشعره بالإحباط و النكسة واقع الجزائر المستقلة المعادي لكل إبداع أو تجديد، يتجاوز مخططات الإدارة وإرادة الحاكمين، فلم يجد ملجأ يقيه من الاحباطات التي يعيشها سوى الانكباب على الكتابة، و الاهتمام بكل ما يعبر عن حياة الشعب الجزائري عله يجد فيها ما يعيده إلى الماضي و ينسيه واقع الحياة الصعبة.

***

كل هذه المواصفات تؤكد لنا أن أبو العيد دودو هو بحق نتاج لبيئته، و حصيلة لتفاعل مجتمعه، و اللسان المعبر عن ظروف عصره، و هذا ما يجعل منه مؤرخا أصيلا في معالجته للأحداث،و أديبا مبدعا في تحليله للظواهر الاجتماعية و القضايا الأدبية، يتجاوز حدود وسطه و إحباطات واقعه إلى الآفاق الواسعة و الفضاءات الفسيحة للثقافتين الشرقية العربية و الغربية الجرمانية.